

الْعَوْدُ إِلَى بَنِي أُمِّي

عن سجن زحلة وسجون أخرى...

شهادة سجين سابق
دَوَّنَهَا
حسن الساحلي

يَنْضَاءُ فِي الْأُضَلِّ

شهادة سجين سابق
دَوَّنَهَا
حسن الساحلي

العَوْدُ إِلَى بَنِي أُمِّي

عن سجن زحلة وسُجون أُخرى...

منتدى المشرق والمغرب للشؤون السجنية
[مشروع بتوقيع أمم للتوثيق والأبحاث]
دفاتر المُنْتَدَى [٣]
بيروت، ٢٠٢٠/٢٠١٩
هاتف: +٩٦١ ١ ٥٥٣٦٠٤
صندوق بريد: ٢٥ - ٥ الغبيري، بيروت - لبنان
مراجعة وتدقيق: صلاح الجيلاني


للأرشيف والأبحاث
Documentation & Research
www.umam-dr.org | www.memoryatwork.org


MENA
PRISON
FORUM
منتدى المشرق والمغرب
للشؤون السجنية

إنَّ الآراءَ الواردةَ في هذه المَطْبُوعَةِ التي كان إنجازُها ونَشْرُها
يَدْعَمُ مِنْ «مَعْهَدِ العَلَاقَاتِ الثَّقَافِيَّةِ الخَارِجِيَّةِ (ifa)» - (المُمَوَّلِ
مِنْ وَزَارَةِ الخَارِجِيَّةِ الأَلْمَانِيَّةِ) - إنَّ هذه الآراءَ تُعْبَرُ، حَصْرًا، عَن
وُجْهَةٍ صَاحِبِهَا وناشِرِهَا، وَعَلَيْهِ فِهْيَ لَا تُلْزَمُ، بِأَيِّ شَكْلِ مِنْ
الأَشْكَالِ، المَعْهَدَ، وَلَا تَعْكِسُ، بِالضَّرُورَةِ، مُقَارَبَتَهُ المَوْسَّسَاتِيَّةَ مِنْ
المَسَائِلِ مَوْضُوعِ البَحْثِ والرَّأْيِ.


ifa
Institut für
Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt

العُودُ إِلَى بَنِي أُمِّي

على سَبِيلِ التَّقْدِيمِ

هذا الدَّفْتَرُ، الثَّالِثُ مِنْ دَفَاتِرِ مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِلشُّؤُونِ السَّجْنِيَّةِ، ^(١) يَدِينُ لِاثْنَيْنِ: لـ«فُلان» — «السَّجِينِ السَّابِقِ» الذي آثَرَ التَّكْتُمَ على اسْمِهِ، وَلِحَسَنِ السَّاحِلِيِّ ^(٢) الذي ائْتَمَّهُ فُلانٌ على تَجَرِبَتِهِ، بِمَا فِيهَا الفَصْلُ السَّجْنِيُّ مِنْهَا، وَعَهْدَ إِلَيْهِ أَنْ يُدَوِّنَهَا نِيَابَةً عَنْهُ...

الدَّيْنُ مُرْدَوِّجٌ، إِذَا، وَلَكِنَّ الشَّهَادَةَ، وَهِيَ مَا يَعْينُنَا فِي هَذَا المَقَامِ، وَاحِدَةٌ لَا تُمَيِّزُ بَيْنَ صَاحِبِ السَّجْنِ وَصَاحِبِ الرُّوَايَةِ. كَذَلِكَ، لَا يَظَلِمُ القَارِئُ أَيًّا مِنْ الاثْنَيْنِ إِنْ انْصَرَفَ إِلَى مُطَالَعَةِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ لَا مُلْقِيًّا بَالًا إِلَى شَيْءٍ سِوَى مَا تَقْصُهُ مِنْ سِيرَةِ فُلانٍ، وَهِيَ سِيرَةٌ يَجْرِي عَلَيْهَا وَصْفُ «السَّجْنِيَّةِ» — لَا يَلِحَظُ مَا يَتَخَلَّلُهَا مِنْ أَسَابِيعٍ وَرَاءَ قُضبانِ سِجْنِ زحَلَةٍ، (شَرْقُ لَبْنانِ)، فَحَسَبُ، وَإِنَّمَا يَلِحَظُ مَا تَنْفَتِحُ عَلَيْهِ، وَمَا تُخْتَتَمُ بِهِ، مِنْ تَعَدُّرِ الحُرِّيَّةِ، أَحْيَانًا، حَتَّى فِي الهَوَاءِ الطَّلُوقِ.

بِالطَّبَعِ، لِهَذِهِ الشَّهَادَةِ أَنْ تُطالِعَ أَيضًا بِوَصْفِهَا، فِي مَوَاضِعَ مِنْهَا، «أَلْبومُ صُورٍ»، بِرَسْمِ التَّصْفُّحِ، عَن سِجْنِ زحَلَةٍ، وَنُزُلَائِهِ، وَمَا بَيْنَ السَّجْنِ وَجِوَارِهِ،

(١) وَهِيَ سِلْسِلَةٌ كُتِبَ وَكُتِبَتِ، لَا دَوْرِيَّةٌ مُنْتَظِمَةٌ لَهَا، مَدَارُهَا عَلَى الْمَسْأَلَةِ السَّجْنِيَّةِ فِي أُبْعَادِهَا الشَّخْصِيَّةِ وَالْعَامَّةِ.

(٢) كَاتِبٌ وَصَحْفِيُّ لَبْنانِي مُتَخَصِّصٌ بِالفنونِ البَصْرِيَّةِ وَالصَوْتِيَّةِ.

وَتَفَاصِيلَ أُخْرَى، وَهِيَ، بِهَذَا الْمَعْنَى، مُسَاهِمَةٌ فِي «الْأَدَبِ السَّجْنِيِّ
الْبُنَانِيِّ» بِالْمَعْنَى الْوَاسِعِ لِلْكَلِمَةِ.^(٣)

وإذ هي كذلك، فهذه الشهادة، أيضًا وأيضًا، نصُّ حَقُّه أن يُقرأ تحت هذا
العنوان... فَشُكْرًا لِمَنْ كَتَبَ، وَشُكْرًا لِمَنْ حَرَّرَ، حَتَّى بَاتَتْ هَذِهِ «الرَّوَايَةُ»
مَشَاعًا يَأْتِيهِ الْقَارِئُ وَالْقَارِئَةُ مِنْ حَيْثُ يَشَاؤُونَ!

مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِلشُّؤْنِ السَّجْنِيَّةِ

(٣) رغم أن لبنان، قياسًا بجيرانه، لا يأتي في صدارة المشهد السجني، فإن هذا «التخلُّف» لا يعني غياب «المسألة السجنية» عن ماضي لبنان وحاضره، ولا بالأولى أنه لا أدبٍ سجنياً لبناني.

بَرَاءَةٌ فِي الْوَحْلِ

خلال طفولتي المبكرة أُصِبْتُ بِالرَّبْوِ؛ لذا لم أَعْتَدْ عَلَى الْخُرُوجِ كَثِيرًا مِنْ بَيْتِنَا الْوَاقِعِ فِي إِحْدَى بِلْدَاتِ مَنطِقَةِ بَعْلَبَك - الْهَرْمَلِ.^(١) لم يُعَوِّضَنِي أَخَوَاتِي الْفَتِيَّاتُ الثَّلَاثُ عَنْ وَحْدَتِي تِلْكَ. كَانَ عَالَمِي مَحْصُورًا فِي أَمَاكِنَ شَدِيدَةِ النِّظَافَةِ لَا يَدْخُلُهَا الْغُبَارُ - بَيْتِنَا وَبُيُوتَ أَقَارِبِنَا الَّتِي تَثِقُ أُمِّي بِنِظَافَتِهِمْ وَحَسَبِ.

حَتَّى بَعْدَ شِفَائِي فِي عَمْرِ السَّابِعَةِ لَمْ يَتَّغَيَّرِ الْأَمْرُ كَثِيرًا، حَاوَلْتُ أَبِي أَنْ يُنْقِذَ انْطَوَائِيَّتِي الَّتِي بَدَأَتْ تَتَكُونُ رَغْمًا عَنِّي، فَهُوَ يِرَانِي لَمْ أُصَادِقْ أَحَدًا وَلَمْ أَلْعَبْ سِوَى مَنفَرْدًا. الْكَلِمَةُ الْعُلْيَا كَانَتْ لِأُمِّي، فَآلُ كَثْرَةِ الشُّجَارِ إِلَى ابْتِعَادِ أَبِي رَوِيدًا رَوِيدًا عَنِ الْمَنْزَلِ، وَإِلَى انْحِصَارِ دَوْرِهِ فِي الْإِعَانَةِ الْمَادِيَةِ فَقَطْ.

لَا أَعْلَمُ كَيْفَ بَدَأَ الْأَمْرُ... فَأَنَا أَصْغَرُ إِخْوَتِي... لَمْ أَفْهَمْ قَطُّ مَتَى بَدَأَتْ تَعَاسَةُ أُمِّي... لَكِنِّهَا مُشَخَّصَةٌ طَبِّيًا بِمَرَضِ الْوَسْوَاسِ الْقَهْرِيِّ،

(١) هي المنطقة الواقعة شمال شرق لبنان.

وكثيراً ما تَطَوَّرَ الحالُ بها لتدخل في نوبات اكتئابٍ شديدة. ولأنَّ مرضها كان مُزِمًّا فقد اعتدنا على كثرة ذهابها للمستشفى.

أمُّ مريضةٌ بالقلق... وطفلٌ مُصابٌ بالربو... وأبٌّ يُحاول إخراج ابنه من قوقعة أمِّه، كان مُدرِّكاً لمرضي ولكنه كان صاحب فطرةٍ هادئة؛ كان يقول لها: ذلك القبر لن يشفي ولدنا، أتركه يلهو مع الأطفال!

أحياناً أُحَمِّلُ نفسي ومَرَضِي ذَنْبَ اشتدادِ حِدَّةِ القلق عند أُمِّي. وكثيرةٌ هي الليالي التي أمُصَّتُها جالسةٌ على الصُّوفا حتى الفجر، لا تفعل شيئاً سوى التفكير بالاحتمالات السيئة التي قد تحدث لأحد أقربائها. تتصل بخالي مثلاً بعد منتصف الليل، لأنها سمعتُ إطلاق نارٍ في البلدة، وخافت أن يكون قريباً من منزله الذي يقع قرب أحياء المطلوبين. أو تُبْقينا في عُرفٍ معينة من المنزل وتمنعنا من المرور قرب الشبايك بسبب الاشتباكات بين العشائر.

خوفها من الخارج العنيف في منطقتنا، ضَيَّقَ عالمي وَحَصَّرَهُ أكثر وأكثر ضمن مساحةٍ صغيرةٍ قرب بيتنا. وقد حَرِصْتُ على تخويفي من عُنفٍ وشرٍّ أولاد العشائر الذين يعيشون على مقربةٍ خلف منزلنا، حيث الصغار في مثل سني يلعبون كرة القدم على الطريق.

وكما أظنُّ، لم يكن خوفها محصوراً من خشونة لعبهم، بل أيضاً من تعرضي للتحرش من الأولاد الأكبر سنًّا؛ ولعله الخوف الذي كان يحسم الجدل مع أبي، لتبرر له لوائح المنع الكثيرة التي كانت تصدرها تجاهنا.

ورغم عدم اندماجي معهم إلا أنني لَمْ أَسَلَمْ من بعض المضايقات،

منها ذكرى محفورة في رأسي، تُشعرنني بالأسى كلما تذكرتها. ذلك الهلع الذي تملكني وأنا أركض خائفًا من ولدٍ منهم يُلاحقني، وفي يده حجر يهددني بضربه. لا أنسى ذلك الموقف، ليس لخوفي من الحجر... بل لأنني كنت أخشى أن يراني أحد وأنا أركض من ولدٍ أصغر مني بسنوات وحجمي ضعف حجمه! تملكني شعورٌ أن أبي كان بالجوار وراقب ذلك المشهد المُخزي مُتَحَسِّرًا على رَجْلِهِ الوحيد!

لما كبرتُ قليلا لم يجد أبي بُدًّا من التدخل، فصار يأخذني معه إلى الصيد. رغم ذلك، حين أستعيد ذكريات تلك الرحلات، يغزوني نفس شعور الخوف الذي كان ينتابني وأنا تائهٌ في الأحراش أحاول إيجاده. كان هلعي يتنامى كلما مرَّ وقت أكثر بدونه وأصير أحيانا أطلق أعيرةً ناريةً من بندقيتي الصغيرة (١٢ ربيع)، علَّه يعرف بأني أبحث عنه. كنت أجلس كأمي... أتخيل سيناريوهات قضائي الليل وحيدًا وتحولي، ربما، إلى وجبة لإحدى الحيوانات.

مؤخرًا، عندما أخبرته بذلك، تفاجأتُ به يقول إنه كان يتعمَّد تَرْكِي كذلك ولكن دون أن أغيب عن ناظريه! تلك كانت طريقته لأعتمد على نفسي وأواجه الخوف... لأتعلم كيف ستكون الحياة في الحقيقة عندما أكبر!

أما عن مدرستي، فقد كانت خارج البلدة، ما قطع الطريق أمام تكوين أي صداقات مع أبناء البلدة أو اندماجي مع واقعها. لم يكن لي أصدقاء سوى ابن عمي الذي يقطن بالجوار، وابن خالي الذي يقطن على مشارف البلدة حيث تكثر بيوت عشيرة

أمي. وكان هو مصدرى الوحيد للتعرف على تلك العشيرة، وعنده
سُمح لي باللعب في الشارع كأبي صبي طبيعي.
تعرفتُ على بقية الرفاق الصغار، وسويًا سوف نَسُبُّ ونضج. كل
مِنَّا قد اكتسب شخصيته التي سيكبر عليها بالفعل، ولن تختلف
أدوارنا كثيرًا إلا بتحول اللعب إلى جد. لم أشعر بالألفة معهم،
لكن لم أستطع الابتعاد عنهم...
لم أفقد الغربة بينهم، لكن لم أكن أخاف منهم كغيرهم... فهُم
في النهاية عشيرتي! لكنني قَطُّ لم أكن مُنْفَتِحًا مثلهم، بل لم
أكن أستطيع إخفاء قَرَفِي من روائح منازلهم الكريهة بالنسبة لي،
والعشوائية في ترتيب حاجاتهم وملابسهم المُتَسِخَّة، فضلًا عن
تَقَرُّزِي من طعامهم إذا حدث ودعيت إليه... إنها عُقْدَةُ أمي
القديمة!

أصدقاء الطفولة أمس هم ذَاتُهُم تُجَار الحشيش اليوم! لكن كأنَّهُم
نسوا صداقتنا القديمة أو قرابة النسب، فما إنْ أُنَاخِر في دفع
المال يتحولون بسرعةٍ معي، بل يُهَدِّدُونِي أحيانًا بِكَيْتٍ وَكَيْتٍ...
مما لا أَحِبُّ تَذَكُّرَهُ... يبدو أَنَّهُم تَغَيَّرُوا قليلًا!
مع أَنَّ دَوْرِي لم يتغير في شِلَّتِهِم، فالصغير الذي كان ضعيفًا أمام
شراستهم قديمًا، هو نَفْسُهُ الذي صاروا يَسْتَقْوُونَ عليه اليوم،
وَيَسْتَخْرِحُونَ منه، بالتهديد إنْ لَزِمَ الأَمْرُ والوعيد، منه أموال
أهله... كدخيلٍ لا يستحق الانتساب لتلك العشيرة المُتَجَبَّرَةِ!

في التَّيِّه

بعد انتقالنا إلى بيروت، ألحقني أهلي بمدرسةٍ إنجيلية قريبة من منزلنا المستأجر في منطقة الحازمية.⁽¹⁾ شكّل هذا الانتقال تحوُّلاً لي إذ فقدتُ على إثره كل العلاقات التي كُنْتُ نَجَحْتُ في تكوينها أخيراً.

طالما ركنتُ إلى راحة الإلحاد طول حياتي، ولم يكن لي ارتباط بأي شعائر تخصُّ ديناً أو مذهباً ما، لكن يبدو أنني مُقَيَّدٌ في السجلات الحكومية بعكس ذلك، فقد اكتشفتُ في مدرستي الجديدة أنني «شيعي»... وفي بلدي يُحشر المرء في خانة ديانته ومذهبه حَشْرًا لا يستطيع التَّمَلُّص منه.

وعلى إثر ذلك، تعرضتُ لمواقف طائفيةٍ بامتياز، دون فعل مُسبقٍ مني. لذا، بمرور الوقت، صرْتُ في هذا المحيط الجديد كالمَسْخِ المتملص من مرجعيته؛ وعند بعض الناس أن تكون طائفيًا خير من أن تكون لا شيء!

ولكِّم السخرية الذي لقيته بسبب لهجتي — حتى كِدت أن أَسْمَى

(١) حَيٌّ سَكَنِيٌّ إِلَى الشَّرْقِ مِنْ بَيْرُوت.

«الريفي ابن بعلبك»... عَيَّرْتُ لهجتي تدريجيًا وجعلتها أكثر «بياضًا» لأخرج من الصورة النمطية المنطبعة في أذهانهم عن مدى تخلف العشائر وتأخرهم. ومن العجب أنني كنتُ أُعتبر «مُتَمَدَّنًا» في مدرستي القديمة في بعلبك، كشخصٍ يُخالف هيئة أقرانه بثيابه المميزة وسلوكه.

في مدرستي الجديدة، عرفتُ زياد رحباني. كانت البداية حين سمعت أحدهم يُدندنُ بأغنيةٍ له... جذبتني الكلمات التي تَجَسَّدَتْ برسم خيال شابٍّ يافعٍ مثلي، ولحنها المألوف. رجعتُ لأختي القريبة من سني، وتعرفنا عليه أكثر سويًا، حتَّى صرنا نحفظ جَمَلًا كاملةً من مسرحياته ونُرَدِّدها بصوت عالٍ في المنزل. نشأتُ صداقة بيني وبين مايكل الذي كانَ من المغنين بزياد أيضًا. كان مايكل مَلاذي الفني وسط كَمِّ كبير من العَمَزِ واللمز ضدي. أدخَلنا زياد الرحباني في كلامنا حتى بالنكات، صرنا نتبارى في حفظ أغانيه ومسرحياته، وانضم إلينا آخرون، وأخريات.

وشيئًا فشيئًا اطرَد اندماجي في جَوِّ المحيطين بي. لا أنكر ما كان لمايكل بسبب من شخصيته القوية ومن ثقة الآخرين به في تسهيل هذا الاندماج وفي انتقال شيء من الثقة بالنفس إليَّ على أن هذا جميعًا لم يخلِّصني تمامًا من خجلي وتحفظي الفطريين. إلى أن طرَقنا باب الحشيش سويًا وأحببناه سويًا!

عَمَّق الحشيش صداقتنا بالشلة وزادت معه ثقتي بنفسي، ولو تكلمنا بواقعية فلم يكن أنا من تعززتُ ثقته بل ذاك الهائم تحت تأثير الحشيش.

ذلك ما دفعني إلى استخدامه كوسيلةٍ للتقرب إليهم وتحصيل إعجابهم، فكنْتُ المتكفل بالإتيان به من مصادره التي أعرفها جيداً. ووجدتُ كم أنَّ هذه المادة قادرة على أن تكون وسيلةً للتجاذب بين الناس، حتى بين أشخاص لا يربطهم الكثير ببعضهم البعض.

رغم ذلك، لم أعد أعرف مَنْ منهم صديقي حَقًّا ومَنْ يريد مرافقتي لمجانبة الحشيش.

لَمَّا وعيتُ سياسة تبادل المصالح بيننا تلك، تعلمتُ كيف أستغل هذا الصنف من الزملاء، ولم أحاول قط التخفيف من حدة هذا النمط من التعامل. وجدتني أفعل ذلك مُتَعَجِّبًا من نفسي، فلست ذاك الشخص الخجول الذي يعطي لا لشيءٍ إلا للاعتراف بوجوده فقط.

تشعبنا في الكليات المختلفة بعد وصولنا للمرحلة الجامعية — منهم مَنْ ذَهَبَ لدراسة إدارة الأعمال وبعضهم لعلوم التكنولوجيا وفريق آخر سافر خارج لبنان.

اتجهت أنا إلى الهندسة المعمارية. بعيداً عن تخصصات بقية الشلة، لكن يبقى الود القديم الذي يجمع كل مجموعة فتيان التقوا حول مائدة صغيرة ليلفوا سجاثرهم ويُخَصِّبوها بالحشيش!

في يوم منحوس، أوقَفَ دَرَكِيُّ أحد أفراد شلتنا في طريق بعد منتصف الليل وبحوزته حشيش ليست بالقليلة. بعد أيامٍ من

توقيفه فوجئنا باتصال من مخفر حبيش بثلاثة منا للتحقيق.
قررت عدم الذهاب... حتى يتَّضح لي ما سيكون عليه موقف
الآخرين.

وبالفعل حصل ما كنت خائفاً منه: قال أحدهم خلال الاستجواب
أني من أعطيته مرة سيجارة حشيش، وتذاكي آخر فقال عني: لم
يكن هو المُعطي، ولكننا كنا نُدخن سوياً!

هُرمون!

في ذهول، كأني تحت تأثير الحشيش، ألقني الشرطي بالحائط، لم أكن أعبأ حين طلب مني خلع ثيابي سوى بالحالة التي سيظهر عليها عضوي! ليس بإرادتي أن ينصب تركيزي في هذا الموقف على هذا الجزء من جسدي خصوصاً، ولعله بسبب كلام صديقتي التي تركتها للتو، فقد كانت تشرح لي ونحن ننفث دخان السجارة في وجوه بعضنا عن علاقة إفراز الأدرينالين بتشنج عضلات الجسم. فهمت الآن ما لم أفهمه حينها!

لذا وقفتُ بطريقة لا تظهرني مُواجهًا لهم؛ حتى جعلني ذلك الخبيث الدركي أقرفص، ليتأكد أنني لا أخبئ شيئاً. خفتُ أن يكون أحداً من السجناء العاملين في المكان قد انتبه لتلك الهيئة التي حاولتُ إخفاءها، وأن يتحول الأمر لِنُكْتة يتناقلونها، ولربما وصل لأسماع أولئك الذين سأتشاطر معهم الزنزانة لاحقاً. ضاع جهدي هباءً!!

فلِعَلِمِي بذلك المصير الذي قد أوول إليه... وهو بقائي في السجن لأيام، بادرت لأسابيع خلت، إلى إطلاق شعر رأسي لَعَلَّ

هذه الكتلة من الشعر تواري بعضًا من الملامح الطفولية التي اتَّسَمْتُ بها، والتي لا تُناسب المَعَدَّلات المرتفعة من هرمون التستوستيرون، على حد قول صديقتي، الموجودة بين نزلاء السجن؛ ولكن زاد الطَّين بِلَّةً حين أَمَرَ الشُّرطي بإزالة شعر رأسي ولحيتي تمامًا. حاولتُ أن أرشي زميلي الحلاق الجديد... ليخففها فقط، لكنه لم يقبل. انكشف وجهي طفوليًّا وبريئًا، وخسرتُ حَظَّ دفاعٍ كنتُ أَعوِّلُ عليه لِحَلْقِ صورةٍ لنفسِي أكثرَ صلابَةً خلال أيامِ سجنِي الأولى.

تَمَلَّكَنِي الخوفُ مِن شيءٍ آخرٍ أيضًا، هو احتمال ملاحظتهم قِلَّةَ شَعْرِ صَدْرِي وظَهْرِي... وقد أكملتُ إزالتهم قبل فترةٍ وجيزة. وحيث إنَّ كثرةَ الشَّعرِ في جِسمِ الرجلِ أَمارةٌ على فاعلية هُرمون الذكورة لديه، كما قالتُ لي صديقتي يومًا، لا بُدَّ سيُطرحون تساؤلاتٍ حول هويتي الجنسية ومدى رجولتي!

لا أذكر أين سمعتُ تلك المقولة «الإنسان وُلِدَ بيئته»... فأنا لم أكنِ بدعًا حين فعلتُ ذلك، كان السبب أصدقائي الذين لقيتهم في بيروت... بعد أن انتقلتُ مِن مَدْرستي الأولى، فقد سخروا من شكل الشعر على كتفي وصدري، والذي يُشبهُ الرِّزَّعْب؛ لذلك لم أتردد في إزالته كما يفعلون.

بالطبع كنت أترك القليل حتى لا أثير حَفِيظة أهل بلدي. أصدقائي الجُدُّ لهم عادات وسلوكيات مختلفة عن أصدقائي القدامى الذين لم يكونوا ليتقبلوا شيئًا كهذا.

وَدَدْتُ أَنْ أَبْدُو أَكْثَرَ صِلَابَةً مِمَّا ظَهَرْتُ عَلَيْهِ فِي لِحْظَاتِي الْأُولَى فِي السَّجْنِ، لَكِنَّ وَقُوفِي عَارِيًّا أَمَامَهُمْ وَمَا تَلَاهُ... أَخَارَ مِنْ عَزْمِي، لِأَوَاجِهِ هَشَاشَتِي وَضَعْفِي. بَقِيَ لِي أَنْ أُعَوَّلَ عَلَى طَوْلِي وَضَخَامَةِ جُنَّتِي... فَكُرْتُ أَنَّهُمَا سَيُعْطِيَانِ انْطِبَاعًا عَنِي بِالْقُوَّةِ — طَبَعًا شَرْطَ أَنْ أَحَافِظَ عَلَى عِبُوسِي وَجِدِّيَّتِي، وَتَجَنَّبَ ارْتِدَاءَ نَظَّارَتِي الَّتِي سَتَجْعَلُنِي كَطَالِبٍ جَامِعِيٍّ مُسْتَكِينٍ.

كَانَ مَأْمُورَ السَّجْنِ يَعْلَمُ بِقُدُومِي؛ فَأَثْنَاءَ تَوْقِيفِي فِي مَرْكَزِ مَكَافِحَةِ الْمَخْدِرَاتِ، اتَّصَلْتُ أَخْتِي فِي زِحْلَةٍ بِأَحَدِ رِجَالِ الْأَمْنِ النَّافِذِينَ، لِيُضْمَنَ عَدَمَ تَعَرُّضِي لِمُضَايِقَاتٍ وَقْتِ مُكُوثِي فِي السَّجْنِ. حَافِلَ الْمَأْمُورِ اسْتِغْلَالَ الْمَوْقِفَ لِأَخْبِرَهُ بِمُوزَعِي الْمَخْدِرَاتِ فِي الْمُنْطَقَةِ... مُقَابِلَ أَنْ أَبْقَى عِنْدَهُ حَتَّى تُحَلَّ قَضِيَّتِي.

لَمْ أَبْهَ لِكَلَامِهِ؛ فَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ الْعَشِيرَةَ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا أُمِّي هِيَ الْأَكْثَرُ حُضُورًا فِي السَّجُونِ، بِسَبَبِ انْخِرَاطِهَا الْوَاسِعِ فِي تِجَارَةِ الْمَخْدِرَاتِ، وَرَكَنْتُ إِلَى يَقِينِ أَنَّهَا سَتُضْمَنُ لِي الْحِمَايَةَ، بِمَا أَنَّ الْجَمِيعَ يَهَابُهَا لَمَّا اشْتَهَرَ عَنْ أَبْنَائِهَا مِنْ كَثْرَةِ مَشَاكِلِهِمْ وَعَنْفِهِمْ دُونَ رَادَعٍ. وَكُنْتُ بِالْفِعْلِ قَدْ تَعَرَّفْتُ عَلَى بَعْضِهِمْ فَتَرَةً مَرَاهِقَتِي، عَنِ طَرِيقِ ابْنِ خَالِي الَّذِي وَضَعَنِي عَلَى طَرِيقِهِمْ لِشِرَاءِ الْحَشِيشِ بِأَدَائِ الْأَمْرِ، ثُمَّ جَدَّبَتْنِي قِصَصُهُمْ وَمِغَامَرَاتِهِمْ الَّتِي تَذَكَّرُنِي بِأَفْلامِ الْمَافِيَا.

بِالنِّسْبَةِ لِهَذِهِ الْعَائِلَةِ، يَعْتَبَرُ السَّجْنُ جِزَاءً طَبِيعِيًّا مِنْ دَوْرَةِ حَيَاةِ أَيِّ شَخْصٍ فِيهَا... فَتِجَارَةُ الْمَخْدِرَاتِ وَزِرَاعَتُهَا عَمَلٌ مُتَوَارِثٌ وَتَقْلِيدٌ لَا يَشُوبُهُ تَرَدُّدٌ. لِذَلِكَ لَا يَتَعَرَّضُ السَّجِينُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَى مَعَرَّةٍ

أَوْ نَبِذَ مِنْ مَّحِيطِهِ الْاجْتِمَاعِي، كَمَا يَحْصُلُ مَعَ أَبْنَاءِ الْعَائِلَاتِ
الْأُخْرَى وَالَّتِي يَنْتَمِي أَبِي إِلَى إِحْدَاهَا.

مِثَالِيَّةٌ مَهْتُوْغَةٌ!

أتى أحد شباب العائلة وأخذني معه. كان أسمر اللون، يرتدي شورط سباحة وقميصًا مُزْرَكَشًا، وبتسريحة شعر الفتيان؛ لكن كل ذلك لم يُخَفِّفَ مِن قَسْوَةِ وجهه وملامحه الإجرامية.

سألني عن الفَخْذِ الذي تنتمي له أُمِّي وعن أسماء أحوالي. كان يعرف واحدًا منهم وتربطه صداقة بأحد أبنائه. استفسر أيضًا عن سبب وجودي في السجن، لم أكن أعرف بماذا أجيب؛ فتهمتي قانونيًا هي «تجارة المخدرات» بينما تهمتي في الواقع تُفْتَصَّرُ على إعطائي أحد الأشخاص سيجارة حشيش ليس إلا، لكنني تغيَّبْتُ عن جلسة محاكمتي... ما خوَّل لهم إصدار مذكرة توقيفي تحت الخانة القُصوى مِن جرائم المخدرات.

طُلبَ مِنِّي الجلوس على أحد الأَسِرَّةِ الفارغة في الزنزانة كي أرتاح...

كان هناك شاب يجلس على السرير بمواجهتي يُقَلِّفُش بهاتفه لا مُبَالِيًا. لم أعرفه في البداية بسبب لحيته، لكن عندما سمعتُ صوته اتضح لي هويته، كان معي في نفس المدرسة التي ارتدَّتْها حتى

الصف التاسع خارج البلدة. دائماً ما كان غريب الأطوار وعشوائي التصرفات.

المفارقة أنّ صداقةً جمعتني به في المدرسة بعد أن ضربني مجموعة من الصبيان الذين كانوا أكبر مني سنّاً، ويسكنون في نفس حي المدرسة. وهو الوحيد الذي كان في صفي من بلدتي. والمُضحكُ أنه بدأ بالتّئمّر عليّ هو أيضاً بعد عدة أشهر، وصرْتُ خائفاً منه أكثر من خوفي منهم.

عزز خوفي منه نمط سلوكياته الانتقامية والتخريبية في المدرسة؛ أذكر مرةً انه قام بتمزيق كرسيّ الناظر شخصياً، بخنجرٍ أتى به من منزله. وأخرى فوجئ الجميع بصورةٍ رسمها على حائط الصف، وكانت لفتاةٍ ناضجةٍ يسيل الدم على فخذها. وبالنسبة لتلاميذ في الصف السادس... تملكنا الدهشة الممزوجة بالرعب مما أثارته فينا عشوائية رسمه وفقاعة لون الدم؛ ولكنه لم يلبث أن طُرد من المدرسة بعد تلك الحادثة.

هذا هو علاء... بعد كل تلك السنين يجلس أمامي في مفارقةٍ أخرى أعجب. بالنسبة لموازن أبناء عشيرة أمي، يمثل علاء النموذج المثالي لما ينبغي أن تُمرَّ به حياة أفرادها، بدايةً باصطدامهم مع الحياة المتحضرة في البلدة، إلى عملهم في المخدرات. متنقلين بين الجرود التي وُلدوا فيها وبين بلدات البقاع الشمالي، وبين بيروت؛ بيروت التي سرعان ما تُحدد مصيرهم، إما بنبذها لهم فيعودوا فاريين إلى جرود أهلهم، وإما سجناء يُعيدون خلق مجتمعاتهم بأشكالٍ جديدة.

ترك علاء المدرسة ليعمل في زراعة الحشيش، حيث بدأ يبيعه في المنطقة والجوار مع أولاد عمه. كان هذا قبل أن يُفتح له مجال أرحب بين طلاب جامعة سيدة اللوزية الأغنياء، حيث ضاعفوا له الأموال التي كان يجنيها من البقاع.

استغلَّ وقت أن كان الأمن الداخلي لا يُفتش النساء، لينقل الكوكايين والحشيش إلى بيروت في ثياب فتاةٍ من أقاربه. مع توسع أعماله انتقل للعيش في حي النبع البيروتي، فَيَتَيَسَّر له أن يَلْبِي سريعا رغبات أفراد الشَّلَّة الأغنياء في برمانا.

خلال سنتين صدر بحقه عدد من مذكّرات التوقيف، واضطر للعودة إلى البلدة مُرغمًا. وكآخرين من عائلته، قام بنقل منزله إلى «حي المطلوبين» القابع على تَلَّة مرتفعةٍ مُطَلَّة على البلدة، يستطيع منها رؤية جميع الطرقات الرئيسية المؤدية إليها. لكن لم يمض الكثير حتى استفاق على صوت جنودٍ يدخلون الحي، حاول الفرار من الجهة الخلفية لمنزله... إلا أنه لفت الأنظار فلاحقوه حتى تعثَّر فكُسرَتْ قدمه. بعد دقائق فهم أنه لم يكن المقصود، وإنما أتوا للقبض على شخصٍ آخر. ولكن الأوان قد فات.

حين قدمْتُ السجن، كان علاء يقضي سنته الثانية. فهمتُ منه أنه لم تعد تُشغله حياته بالخارج كما كان الحال في البداية. حاول أن ينقل إليَّ تلك اللامبالاة والعدَمِيَّة التي تنتابه، ليؤكد لي أن هذا ما سأشعر به مع مرور وقت السجن البطيء. كثرة كلامه هذا أثارت هلعي... ونجح في أذيتي نفسيًا. لم أكن قادرًا على فصله عن ماضيه، خاصَّةً أن سلوكياته بقيتُ معي متناقضة، فحينًا يُعاملني كصديقٍ مُقَرَّب، وحينًا يسخر مني. مُصاهرتَه للشاويش لم تجعل له أي رادعٍ لما يفعله، وخصوصًا مع الزوّار الجُدُد.

وبسبب سلوكياته هذه المستبحة معنويًا للزنازة، كان يخافه
المساجين بشكلٍ عام. لكن عَوَّضًا عن سعادتني كوني أعرفه منذ
الصغر، ما كان يجعلني في الظاهر أحتمي به، كان يتناقص شعوري
بذلك حين أكون جالسًا معه، بل يتملكني الخوف من أن أصبح
بأيِّ لحظةٍ واحدًا من المساجين الذين يَتَنَمَّر عليهم!
هذا هو النموذج المثالي للعشيرة!

تُرْبَةُ بُور!

الغرفة مستطيلة الشكل، تزدهم بحوالي ٢٥ شخصًا، ثمانية فقط مَن ينامون على الأُسْرَة، والباقي يفترشون الأرض. معظم السجناء من بلدي ما عدا خمسة من مناطق مختلفة، وليس بمستغرب طبعًا أن يكون نصف العدد من عشيرة أُمي.

تذكرتُ أنني أعرف الشاب الذي رافقني من مكتب المأمور إلى الزنانة، فاسمه يُلازم كل مشكلةٍ جسيمةٍ تحدث في أنحاء البلدة، و«المشكل عنده مثل شربة المي» كما تقول والدتي. وكذلك أخوه المسجون معنا صاحب الصيت الذي لا يقل سوءًا عنه. هذا الصيت جعلهما يتبوآن المكانة المُهابة في السجن، حتى صار يُطلق عليهما "الشاويش والعَرِيف"

دخل «الشاويش» السجن بعد إدانته بجريمة قتل، إثر اشتباكٍ حصل بينه وبين أفراد عشيرةٍ أُخرى، وقد مضى من حُكمه ست سنوات فقط، والبقية تأتي.

أما «العَرِيف» فقد دخل مؤخرًا... ولكن بطريقةٍ أكثر مهانة، إذ سلّمته عائلته حَقْنًا للدماء، إثر مقتل شابٍ في اشتباكٍ مع عشيرةٍ

أخرى عن طريق الخطأ، وهو يُؤمّل أن يخرج في حال تمّت مُصالحة بينهما.

ومع ذلك كان العرّيف أكثر إثارةً للخوف بالنسبة لي، فقد كان الدُّراع التنفيذي لأخيه في الغرفة، ولم يكن يتوانى عن التصرف بحقارةٍ مطلقة مع المساجين الآخرين. أما أنا فكان يَخُصُّني بنصائحه من وقتٍ لآخر على سبيلٍ مُريب، كأن ينهاني أن أتحدث مع أفراد العائلات الأخرى، أو أن أحلق لِحَيْتِي، أو أرتدي نظارتي، ومِن المَحَرَّمات أن أشتري أيّ شيءٍ مِن أحد غيره. بالإضافة إلى ما كان يستدرجه من أموالٍ مُقابل إطعامي، وأحيانًا مُقابل مساحةٍ أزيد على الأرض للنوم المريح.

لم يَمَسُّني بسوءٍ ظاهرًا ولكنه بَطَّن لي التهديد إن خرجتُ عن طاعته. وكذلك أصبحتُ تحت سطوته نفسيًا وماديًا!

رغم انقطاعي عن بلدتي منذ أكثر من عشر سنوات، لم أقطع تواصلٍ مع المقربين من عائلتي. ولم أفقد شغفي بتَصَيُّد أيّ خبر يَمُتُّ لأولئك البلطجية مِن عشيرة أمي.

لا أنكر أنني دائمةً كنتُ أعجب بهم في بداية شبابي، وقد شكّلوا جزءًا مِن شخصيتي، سلبياً وليس إيجابياً، دون أن أحتكّ بهم أو أعمل عملهم، ولكن بمجرد سماع قصصهم التي كانت تشبه بالنسبة لي حكايات أبطال السينما...

مَنْبُودٌ وَإِنْ كَانَ..

لم أتأقلم قَطُّ مع المسجونين معي في نفس الغرفة، كنت متيقناً من بُغْضهم لي وتوجسهم مني؛ لذا لم يُفَوِّتوا فرصةً لإذلالني خفية، دون أن يتركوا أثراً يُسألون به.

ليس لي أن أستغرب هذا أو أحاول إصلاحه ولو قليلاً، فمع أن غالبيتهم من أقارب أمي، إلا أنهم بقَدْرٍ بشعٍ يبغضون عائلة أبي، فهي مع صِغَرِ تمددها في البلدة، تُعتبر صاحبة امتيازاتٍ سياسيةٍ كبيرة، وقد استفادت من صعود نفوذ «حزب الله» في البقاع الشمالي خلال العقود الماضية، لتُثبت وجودها... ضد ظلم العشائر الطويل.

بينما هم في عِداد المُهَمَّشِينَ جَرَاءَ مخالفتهم للقانون وأعمالهم في الممنوعات، تَنَعَّم عائلة أبي بالشرعية التي يَأْمَنُهَا الغطاء السياسي مع وظائفهم في الدولة.

زاد سخطهم لما رأوا السرعة في تحديد جلسة مُسَائِلَتِي خلال العطلة القضائية، بينما يضطرون هم للانتظار لفتراتٍ طويلةٍ دون محاكمات.

فمع شِدَّةِ المِرَاسِ التي يبُدون عليها.. إلا أنهم لَشَدَّ ما يكتئبون

ويُضْمرون الغضب إذا مَرَّتْ مِنْ أَمَامِ أَعْيُنِهِمْ امْتِيازات ليس لهم فيها رَجَاء!

كان لذلك أثره على أرض الواقع؛ فبعد سنواتٍ مِنْ بِناءِ أَبِي وَصَهري بيتًا كبيرًا في جرود بعلبك - الهرمل، فوجئوا باقتحامه مِنْ أَشْخاصٍ مجهولين، سرقوا وخرّبوا ما امتاز به المنزل مِنْ ديكوراتٍ وأثاثٍ لم يعتادوا على مثله، فبيوتهم لم تُفْرش إلا بأثاثٍ متواضع لُزوم النوم والجلوس فحسب. وتكرر ذلك الحادث مع آخرين من أفراد عائلات البلدة الأصليين.

بَرَزَ لي أَبِي يومها ما حدث بأن السكان لم يعتادوا أن يُقيم أحدٌ بيته أعلى تلك الأراضي المرتفعة، خاصةً إذا ظهر المنزل بمظهر المتعالي على أصحاب البيوت المنحدرة المتقشفة في الأسفل هناك!

وأنا في السجن تذكَّرتُ تبرير أَبِي الذي لم يعد مقنعًا كثيرًا. صار اقتحامهم وتخريبهم بالنسبة لي رسالةً موجهةً ضِدنا بشكلٍ مباشر، وسيكون هنالك مثلها في المستقبل. كما أنه لا يُمكن فصلها عن السياق السياسي والاجتماعي لعلاقة العشائر بعائلات البلدة الأكثر تحضرًا. وهي علامةٌ على حِقْدٍ قديمٍ ورغبةٍ بالأذى لن أستغرب إن حصل مثلها معي في السجن، بعد تَكْثُفِ تلك الأحقاد في رؤوسهم.

كانت لجغرافيا الزنزانة بُعْدًا اجتماعيًا... أو بالأحرى طبقياً؛ عزز تلك الكراهية أكثر، فلسان حالهم أنهم استراحوا من العائلات صاحبة النفوذ في الخارج، فلم يبق إلا مشاركتهم لنا في الزنزانة! فقد كانت الغرفة مُقسَّمةً إلى ثلاثة أقسام افتراضية. المدخل

من ناحية الباب: ينام فيه الشاويش والعريف وبطانتهم وأصحاب مائدتهم، وهي بمثابة الديوان الذي يستقبل فيه الضيوف الجُدد أيضاً!

تَمَيَّز المدخل بهواءٍ نظيفٍ إلى حدِّ كبيرٍ بسبب قُربه من الباب، وبمراوحه الكثيرة وإطلالةٍ على تَلْفَازٍ في غرفة الحارس القريبة. ثم وسط الغرفة حيث يوجد النسبة الأكبر من السجناء غير المحسوبين من جهةٍ ما على الشاويش ولا يأكلون على مائدته، لكن يمكن أن يكونوا مِن أبناء العشيرة.

أما المؤخرة! كما كانوا يدعونها: فهي الأقرب إلى الحمام ومكان تنظيف الصحون. وكلما اقتربت إلى المؤخرة يعني أن احتمال خروجك من الزنزانة أصبح أقرب زمنياً، أو أن مرتبتك ضمن المساجين أصبحت أدنى، كما هو الحال مع الخادم والطباخ.

وبما أنني انتقلت للنوم في المدخل الأعلى من الزنزانة... لأنني صرت محسوباً على الشاويش وأكل على سفرته، دَفَعْتُ بلا قصدٍ مِنِّي المساجين الذين كانوا في الوسط... نحو الحَمَّام!

يَنْضَاءُ فِي الْأَصْلِ

خِذْلَان

ربما حالة «الخادم» كانت الأسوأ بامتياز. كان سُورِيًّا من منطقةٍ قريبةٍ من الجولان. يعمل من الصباح حتى منتصف الليل دون توقُّفٍ مقابل دخانه وطعامه فقط!

أخبرني أنه سُجِنَ لسرقته هاتفًا محمولًا، ورغم أنه قَرَّرَ إعادته لصاحبه بعد تأنيب ضميره، إلا أنَّ الأخير غَدَرَ به وسَلَّمَهُ للدَّرَكِي. لم يكن يعرف أحدًا في لبنان ولا يملك أيَّ نقود ليعيش بها. هيئته كانت تُثير الأسى، خاصةً أنني لم أكن أراه يرتاح سوى آخر الليل.

أما عمله فكان التنظيف وغسل الأطباء ومسح الأرض عدة مرات خلال النهار، بالإضافة لغسل ثياب الشاويش وجماعته. ربما كان العمل الأقسى من كل ذلك، حمل أغراض الشاويش وجماعته من الدُّكَّانة في الطابق السفلي إلى الغرفة، وكانت تضم غالونات المياه وأشوال الحبوب الضخمة والمعلبات التي كانت تُوضع جميعها تحت الأَسِرَّة وعلى الرفوف، بالإضافة إلى اللحوم والأطعمة المجمدة التي كانت تُحفظ في الثلاجات الموجودة في الزنزانة.

رغم أنه ليس مثلي... لبنانيا، من منطقة بعلبك - الهرمل، ومن أبناء العشائر... إلا أنه شابهنّي في قِلَّةِ الحيلة! وخذلان المصير!

الطباخ هو الآخر يُستغلُّ، لكن بِقَدْرٍ يحسده عليه الخادم. أبو علي. وظيفته يوميًا إطعام أكثر من نصف السجناء، ثلاث وجبات في اليوم.

لم أتكلم معه أبدًا بسبب انشغاله أغلب الوقت، وغضبه الدائم لكثرة الوجبات التي عليه تحضيرها، وأكبرها مائدة الشاويش التي كنت أتناول الطعام عليها، وتضم ٧ أشخاص غيري.

كان يطبخ الأكلات اللبنانية المعتادة على الغداء، وجميعها يدُخَّلها اللحم بكمياتٍ كبيرة. كما كان عليه تحضير ساندويشات في الليل، وترويقة لبنانية في الصباح (لبنّة، زعتر ومكدوس...)

وبالإضافة لمجموعة «الشاويش»، كان يُطعم مجموعةً أخرى مقابل عربة مالبورو أحمر، ويستلمها عنه الشاويش إلى حين!

أَنْجِدَارٌ مُتَلَكِّيٌّ

كانت أحوالي مستقرةً لأسبوعٍ فقط بعد سجنِي، حتى انضمَّ إلينا جلال وهو شابٌّ من عائلة أمي، أصله كُرْدِيٌّ حتى تَبَنَّاهُ قَرِيبٌ لأمي بعد أن عمل فترة في مقهاه، ولأمي فضلُ إتمامِ إجراءاتِ تَبَنِّيهِ وتجنيسه ليصير مواطنًا لبنانيًّا مُنتميًا بالاسم لإحدى أعنف عشائر بعلبك — الهرمل.

العجيب أن جلال سُجن بسبب اشتراكه في الاشتباك نفسه الذي قُبض على العريف فيه. لكنَّ جلال أتى مُصَابًا بطلقِ نارِي في قدمه، ولا يسير دون معين. أقحم نفسه ليظَهَرَ ذا شأنٍ أمام زملائه، ومُدافعًا عن أحد زعماء العشيرة، لكنَّ قَالَهُ قد خاب، أُصِيب ولم يذكره أحد حتَّى وصل الجيش.

بعد أيامٍ من وصوله تَلَقَّى جلال كلامًا قاسيًا من «العريف»، يؤنبه فيه على تدخله وإقحام نفسه فيما لا دخل له فيه. بعدها أثار جلال أن ينتقل إلى زنزانة أخرى بعد أن شعر أنَّ وجوده ليس مرغوبًا فيه، عكس ما كان يؤمل ويتوقع.

بسبب ما حدث مع جلال، بلغ مستوى قلقي أضعاف ما كان عليه أول دخولي. وصار أَتْفَهُ شيء يحصل في الزنزانة يُثير فزعِي، وإعمال

الوساوس والكوابيس في رأسي. تَمَثَّلْتُ نفسي مكان جلال، وحيدًا منبوذًا من المكان الذي قضى فيه سنوات طويلة. تَخَوَّفْتُ مثله أن يتخلى عني الجميع وأصبح فريسةً للاضطهاد بعد انتهاء فترة استضافتي، خاصةً أني بعد مرور أسبوعٍ من دخولي لم أعد متأكدًا من خروجي قريبًا، على نقيض ما كانت تقوله لي أختي على الهاتف.

استطاع منطق الزنانة أن يبتلعني، ويقنعني أن التهمة التي دخلت بها ستبقيني سنوات في السجن كما حصل مع مساجين آخرين قبلي.

ما هَدَّأْتُ به روعي ساعتئذ في مقارنتي بهم، أن سَجَلِي نظيف، وتبقى المسألة مجرد تعاطي للمخدرات بين الأصدقاء، كما أكَد المحامي، فضلًا أنه قد مضى على تلك الحادثة أكثر من ٥ سنوات، وللتو تخرجتُ من الجامعة. كل ذلك أَقْدَرَنِي قليلًا على دفع الأرق عني!

مع ذلك أسلمتُ نفسي رغماً عني لرؤية الوجه الآخر من الحقيقة. نصبوا لي المحاكم وأقنعوني أنني سأبقى، وأنَّ الدولة لا تُفَرِّقُ بين سيجارة حشيش وكيلو كوكايين. والدليل أن الكمائن دائماً تتشدد مع أي شخصٍ من عائلتهم، كما أنَّ قائد الجيش قال بالحرف في مجلسٍ خاصٍّ أن «كل واحد من هذه العائلة مطلوب للدولة» لكن حديثه هذا قد أتى بعد مقتل جنديين من الجيش في اشتباكٍ إثر دخوله إلى مناطق في الجرود لإلقاء القبض على واحد منهم. لم يكن تسليية نفسي من كلامهم سهلاً إطلاقًا!

نُزُوحٌ إِلَى الْعُمُقِ

لم أكن وحدي المغترب عن محيطه في الزنانة، فقد لاقيتُ نماذجٍ أُخرٍ شعروا بالوحدة مثلي... مِنْ أوزار الطائفية حينًا، ومن أثقال الطبَّقيَّة حينًا!

كان منهم سجين مسيحي طاعن في السن له من العمر ٧٥ عامًا، وله في الغرفة ٤ سنواتٍ مِنْ عشرين حُكْمٍ عليه بهم بتهمة القتل العمد.

لم يكن بإمكانه البقاء في غرف المسيحيين بسبب وجود أقاربٍ للقتيل فيها، وقد فُرض وجوده على المساجين الشيعة مِنْ قِبل مأمورٍ سابقٍ، رعايةً لعمره، ولا بديلٍ غير ذلك. بقي في الغرفة منذ ذلك الحين. لكن المحيطين به، وليس من بينهم الشاويش، زلم يَمَلُّوا مِنْ مضايقته... وَمِنْ أهالي البلدة المتعصبين دينيًّا وليس من أبناء العشائر!

رجلٌ ينتظر الموت ولا يؤمل أن يعيش خارج السجن ثانيةً. ضاق السجناء به وانغلق الأفق أمامه، حتى وجدته ينعزل

بمكانه عن الآخرين يسرح بخياله في الفراغ، ثم لا يلبث أن يبدأ حديثاً مع أشباحه بصوتٍ خافتٍ وتعابيرٍ مختزلة. لم يكن مختلفاً بذلك عن أي مريض بالإنفصام.

في زاوية الغرفة، حيث خلق عالمه البديل الذي يهرب من بني الإنسان إليه، يفرغ فيه أحاديثه وتخيالاته ويحقق فيه رغباته المكبوتة من النحيب، وأحياناً الصراخ! كانت محادثاته لا تمت بصلة إلى عمره وحاله، فمرةً يُواعد... وأخرى يسافر... وثالثةً يقتل!

كان مصدرًا لتسلية المساجين في الغرفة، كمسرحيةٍ تعمل لملاً أوقات الفراغ. وفي حال اقتربت لأكلمه، كان يتكلم في أي شيء يخطر على باله ثم ينصرف فجأةً لمحدثه من العالم الآخر. عدا مرةً أحب هو فيها أن يتكلم، حكى تفاصيل جريمته غير نادمٍ ولا مُشفقٍ، اعترف بكمّ الحنق والغیظ الذي اعتراه حينها... ولو أنه عاد به الزمن لأفرغ بقية مخزن مسدسه كاملة في رأس الضحية.

قال أنه كان شجار مع جاره في شقته بسبب علو الصوت المنبعث من تلفازه في الليل، سحب مسدسه وذهب إليه في نوبة غضب، ارتفع صوتهما مع دويّ تكسير زجاج. هُرع نحو باب الشقة جاراً من الطابق السفلي، أكثر من طرق الباب؛ وفي خضمّ الغضب... فقد العجوز السيطرة على نفسه... صوب المسدس نحو الباب وقتل «الضحية»!

أما النموذج الآخر لبشاعة الوضع الاجتماعي الذي أثقل الكواهل

فسجينٍ من «فتح الإسلام»^(١) كان أميرًا لـ«المبنى ب» في سجن رومية،^(٢) الذي ظل «إمارة» مستقلة يُمنع الأمن اللبناني من دخولها لسنوات.

السؤال البديهي طبعًا هو ما الذي يفعله في زنزانه أغلب مَنْ فيها شيعة ومن بعلبك - الهرمل؟ والجواب يُلمس عند «الشاويش»، الذي كان مسجونًا يومًا ما في نفس المبنى «ب» تحت حماية «الأمير».

وكان على الشاويش أن يرد الجميل، فساعده لينتقل من سجن رومية التي أصبح فيها وضع المساجين الإسلاميين سيئًا جدًّا، إلى سجن زحلة^(٣) التي كان الوضع فيها أفضل من نواحٍ كثيرة. أمكنه تأمين الحماية له بما أنه شاويش الغرفة، ويمتلك الحظوة بين أقاربه وأتباعه.

كان سهلًا تحديد المعنوي بالهمس المنتشر في الغرفة، استهجانًا من وجود شخص كهذا بينهم، خاصةً من المساجين الذين ينتمون لعائلات بلديتي الأصلية... ولا سيّما منهم أولئك الذين يريدون الإيحاء بأنهم مع حزب الله ويُعارضون وجود هؤلاء الأشخاص انطلاقًا من اعتباراتٍ طائفية.

رغم ذلك لم يكن «الشاويش» ليردعه شيء عن استكمال ما يفعله، خاصةً أنّ عشيرته لها علاقة سيئة مع حزب الله بشكلٍ

(١) فتح الإسلام: مجموعة «إسلامية» مسلحة منشقة عن «فتح الانتفاضة» كان أول ظهورها في شباط ٢٠٠٦ في مخيم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين الواقع شمال لبنان. في أيار ٢٠٠٧ اندلعت «حرب» بين المجموعة المذكورة والجيش اللبناني انتهت بالقضاء عليها.

(٢) رومية هو السجن المركزي في لبنان. أمّا «المبنى ب» فَجَنَاحُ السَّجْنِ الَّذِي كَانَ مُخَصَّصًا لـ«الإسلاميين» والذي تميّز خلال فترات طويلة بخروجه عن السَّيْطَرَةِ الْأُمْنِيَّةِ.

(٣) زحلة: من كبرى مدن محافظة البقاع، وهي مركز القضاء المُسَمَّى باسمها.

عام، ورغم وجود بعض المناصرين للحزب حتى بين تجار المخدرات أنفسهم! ويُعرف جيدًا أن الحزب يتعاطى بحذر مع كل شيء يتعلق بالعشائر، ويتركهم يتصرفون كما يشاؤون... كأنهم خارج القانون والمنطق الذي تعيش باقي عائلات بعلبك الهرمل تحته.

توقفتُ كثيرًا عند حكاية هذا السجين، فهو لم يتلقَّ التعاليم الدينية بشكلٍ منهجي إلا بعد دخوله السجن، بما أنه لم يكن إسلاميًا أصلاً بل أقرب إلى قَبَضَايات الشوارع. كان سبب دخوله، إدانته بجريمة قتل حصلت خلال اشتباك بين شباب منطقتهم مع منطقةٍ أخرى في طرابلس. ثم بعد قضائه سنتين في رومية واختلاطه بالسجناء الإسلاميين أصبح عضوًا في منظمة «فتح الإسلام» التي ساعدته على الترقى والحصول على حظوة ومكانة عابرة للجماعات والمناطق.

كان وضعه جيدًا من الناحية المادية، وحسبما فهمتُ من مساجين آخرين، أنه جمّع ثروةً من جمع الخَوَات خلال الفترة التي كان فيها أميرًا لـ«المبنى ب». كما امتلك هاتفًا حديثًا، مع العلم أنّ سعر الهاتف داخل السجن يبلغ أضعاف سعره في الخارج.

أغلبية وقته كان يمضيه على هذا الهاتف، إما للتواصل أو مشاهدة الخطب الدينية والاستماع للقرآن. كما أنه كان مُدمنًا لمشاهدة مقاطع الفيديو من نوعية «الرومانسية الدينية» حيث يكون في الخلفية من يُدندن بالآهات البديلة للموسيقى المحرمة بالطبع، ومحتواها عن موت الفجاءة، أو الحوادث التي تُصوّر بكاميرات الشوارع عن الطفل الذي نجا بأعجوبةٍ من

أمام القطار! وربما فيديوهات تصور كيف ستكون نهاية العالم!
تلك النوعية التي تُشبع مناطق الطاقة البديلة فيه. فكان يتأثر
حد الرهبة والأين!

بشكلٍ عام كانت علاقته غريبة مع المواد البصرية، فقد بدا
فخوراً وهو يُريني فيديو تعذيبه مع أصدقائه بعد القبض عليهم
في رومية، ولا زلت حائراً من تلك الخفة والبهجة اللتين كان
ينظر بهما إلى نفسه في الشاشة، كأنه شخص آخر لا علاقة له
به!

يَنْضَاءُ فِي الْأَصْلِ

أَيْنَ الْمَفْرِّ؟!

مع أنني كنتُ واعياً لوجودي في سجن زحلة، وتحديدًا في الطابق الثاني منه، إلا أنَّ شعوراً لم يُفارقني طوال فترة سجنني بأني في قبو عميق تحت الأرض. قبوٌ أشبه بالعوالم السفلية التي يُنفى إليها المنبوذون. هذا ما ألجأني إليه الضيق الممتد في نفسي! حفَّز هذا الشعور بالضيق تدهور نظرتي لنفسِي، وظنني أن مكائتي التي حاولت منذ صغري إثباتها للعالم قد تراجعتُ لنقطة الصفر، انصهرتُ وسط أصحاب الجنايات والقتلة.

عندما قُبض عليّ عند حاجز ظهر البيدر،^(١) تخيلتُ نفسي ساقطاً في هوةٍ ليس لها قرار، أوقعتُ نفسي بنجاح تام! هوةٌ لا تجري عليها قوانين الزمان والمكان، حيث انعدم احترامي لأي أملٍ في كوني إنساناً سيكون له شأن ما!

كلُّ ما كنتُ قادراً على القيام به في السجن هو استعادة أحداث الماضي، والتكهن بكل ما يُحتمل أن يقع في مستقبلٍ قريب.

(١) حاجز أمني مركزي بين محافظتي جبل لبنان والبقاع.

لم أتوقف عن التفكير والقلق في كل لحظة، وانتظرتُ ما سأعانيه
بقائِي هنا... مِنْ هَتَكِ واستباحةٍ واستغلال.

كان بإمكان أي كلمةٍ صغيرة تُقال تعريضًا أو همسًا في الأنحاء، أو
أي حدث حتى وإن كان لا يَمُتُّ لي بصلة، أن يُفاقم خوفي ويحوّله
إلى هلع واضطراب. أما عن الآخرين، فهم يقضون أوقاتهم بلعب
الورق أو القمار، والتحدث مع بعضهم. أما عني فلم أكن قادرًا
سوى على تعزيز قلقي! لذلك طال بي الوقت، ومرر ببطيئًا جدًّا
أبطأ مِنْ مروره على بقية المساجين.

كنت عندما أتذكر شيئًا حصل معي قبل يوم، أشعر أنّ أسابيع مرت
عليه، حتى الفارق بين الصباح والليل صار كبيرًا جدًّا، بسبب كثرة
الأحداث والأفكار التي تتخبط في داخلي.

عند خروجي لم أفهم كيف مر عليّ في سجنِي أسابيع قليلة
فقط؟ بينما شعرتُ أنني سُجنتُ لأشهرٍ وربما لسنوات!

بعد مرور عامٍ من خروجي، لازمني شعورٌ بأنني لازلت بينهم، ولا
يزالون يتهامسون عني ويحيكون المؤامرات لإيذائي.

واليوم رغم مرور ٤ سنوات، عندما أشم رائحة عفن أو أدخل مكانًا
لا يدخله الهواء، يعود لي الإحساس بالهلع نفسه، وكأنني رجعت
وسطهم. لدرجة أنني ذهبت لطبيب نفسي لأتغلب على تلك
الهلاوس ولو بالدواء. لكن الدواء إذا أذهب عني بعضها حينًا... أتى
بها دفعةً واحدةً في أحيانٍ أُخرى!

صرتُ عندما أفكر بالذهاب إلى بلدتي أخاف مباشرةً من رؤية

«الشاويش»، ويسألني لماذا كذبتُ عليه عندما سألني عن الحبة التي أخذتها في السجن. أعطاني إياها يومها «الحاج أنس» مقابل ستة ظروف نسكافيه كي يلعب القمار بها، ولأستطيع أنا النوم بعد ثلاث ليالي من بقائي مستيقظا. فضحت نفسي أمام «علاء» قبل يوم من خروجي لكن دون أن أذكر مصدر الحبة.

ثم بعد أسبوع اتصل بي «الشاويش» وسألني. لم تكن الحبوب متاحة قانونياً سوى للحاج أنس بسبب مرضه، وكانوا يريدون حُجَّة كي يتخلصوا منه. غالباً حصل ذلك.. لكنني فضلت عدم التأكد. وفضلتُ التوقف عن الذهاب إلى البلدة. لم أكن مضطراً لرؤية «العريف» أيضاً، فلربما يُطالبني بنقودٍ مقابل الليالي التي نمتها عندهم والطعام الذي أكلته على يد طبّاخهم. خشيتُ حتى من مقابلة أقارب أمي، ظننتُ أنّ مَنْ كان يكرهني منهم سيؤذيني ويستقوي عليّ، لا لشيء إلا أنني أبدو بلا ظَهْرٍ يحميني... أو هكذا يخيل إليّ دائماً!

لم تتوقف نوبات الهلع... ولا تزال تزورني من وقت لآخر. أنتظر في كل لحظة أمراً سيئاً على وشك الحدوث. أخمن أن يَشِي بي أحدهم مرة أخرى وأعود للسجن. وأرى رجوعي بين رفاق الغرفة مرة أخرى، يلوح لي ضيقهم ونبذهم، وذلك اليأس القابع في الأرجاء!

فاتني أنهم لم يعودوا مكانهم إلا في خيالي. أصبحوا في الخارج الطليق الآن. بينما لازلت أحبس نفسي بينهم هناك!

“In spite of being imprisoned on a second floor dormitory of the prison of Zahle, the feeling of being dumped somewhere, in some underground oubliette, never left me... it wasn't to do with the location in which I was confined, but with myself: in that dormitory, under the supervision of *my family*, I felt that I went back to square one in terms of all of the effort that I had made to recover myself.”

A couple weeks after his arrest X*** was set free. Free? Well not exactly...

«I didn't spend more than a couple weeks in prison. Forget how long... I felt as if I had spent years inside... Still today, four years after that experience, every time I step into a enclosed space the same feelings grip me once again. I went to see a psychiatrist. He gave me some medication but it did not really help. Indeed, I feel free of it from time to time, but too often I'm the prey of my memories and I have the impression that they are assaulting me again: I don't want to be denounced and taken to jail again... I don't want to be at the mercy of my cousins/cellmates again... And as soon as I recover from this spate of anxiety, I realize that most of my former inmates were set free... and are today carrying on, good or bad, with their respective lives and that I'm the only one who's still in the dormitory... there....”

While this testimony X*** shared with Hassan Sahili as if delivering a *confession* does not hide its subjective and introspective nature, it would be unfair to discount all that this tells us about the *prison culture in Lebanon*—and especially about the perception of prison as an *occupational hazard* within some communities—such as the one to which X*** belongs.

Given all this, this booklet's subtitle deserves to be understood more as a statement than as a pun and more as a general observation than a subjective conclusion of the experiences gained through incarceration: one prison may hide another, and any given society may hide a lot of prisons!

Zahle—a town in eastern Lebanon. In fact, the geographic and social organization of that cell is copy/pasted from the world outside it—or at least this is how it seems to X*** who found himself there after being arrested for a trivial, drug-related issue.

In comparison to many others who have shared their testimonies about time spent in prison, X*** cannot compete in regard to the time he spent behind bars or in terms of his treatment, nor can he claim that what led him to be there was the noblest cause in the world.

However, this testimony is no less violent and powerful than the those of individuals who spent long years in prison and were subjected to the most inhumane torture. This testimony is, in fact, an open story of an endless, three-fold imprisonment experience.

It took X*** being physically jailed to realize that up until he became an adult, he had never left with his possessive family: brought up in a rural region within a family culturally at odds with its clanic milieu despite the kinship associating it with this milieu, and suffering from asthma, he did not grow up like his peers and it took him a while before he moved away from his family and started to find his own way. Nevertheless, the difficulties of his upbringing were not easily forgotten and even once away from the family he became hostage to a deep crisis of self-esteem.

X*** didn't realize how mentally and emotionally fastened to this past he still was until his week-long carceral experience. However, this discovery wasn't the worst thing he went through in prison!

Once jailed, he found out that the cell he was to be confined in was largely filled with inmates from his mother's clan. Most of them were there for drug related crimes. Additionally, during this time in prison X*** found himself to be out of sync with his peers. As a youth he was under the protection of his mother and father, but here, in the wilderness, he had no other choice but *to voluntarily come back into the fold*, putting himself under the protection of the family and enjoying the luxury and security of the first class section in the cell!

BACK TO THE FOLD

By Way of Introduction

“The topography of the prison dormitory had itself a social dimension... It wouldn’t be an exaggeration to call it a *class dimension*... It was essentially divided into three sections: closest to the entrance was where the *chairperson* of the cell—call him whatever you want—would sit surrounded by his favorites and his entourage. It was a kind of divan where food was served but was also a kind of *information point* for newcomers. Being closest to the entrance, it was the most aerated part of the dormitory—you could feel the breeze produced by the fans hanging on the ceiling—and it also had a view of the television in the warden’s room. The middle of the cell was the most populated section. These were the average inmates. They were not allowed to move forward, though some of them may have had family ties with the chairperson. The section furthest back, the *rear* as we called it, was the one nearest the toilets and the makeshift sink. Being placed there meant one of two things: either that the prisoner in question was about to finish his term of punishment or that he was downtrodden and lacked any status. As things changed and I had the opportunity to be upgraded to the first class section, my move reordered the position of the inmates, causing a few of them to get closer to the rear... in other words: to the toilets....”

This is how journalist Hassan Sahili, who collected and drafted the testimony of X**, renders the story told to him by his interlocutor who served several weeks in a cell in the prison in



www.umam-dr.org | www.memoryatwork.org



MENA PRISON FORUM
[A project by **UMAM D&R**]
MPF LOGS [3]
Beirut 2019/2020
Tel.: + 961 1 553604
P.O. Box: 25-5 Ghobeiry
Beirut - Lebanon



The views expressed herein are solely the responsibility of their author and of their publisher. The contents of this publication do not reflect the opinions or organizational perspectives held by the Institute for Foreign Cultural Relations (ifa).

This publication was produced thanks to financial support from the Institute for Foreign Cultural Relations (ifa), which is funded by the German Federal Foreign Office.

Testimony of a former inmate
Documented by
Hassan Sahily

BACK TO THE FOLD

One Prison May Hide Another...

INTENTIONALLY LEFT BLANK



**MENA
PRISON
FORUM**

مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
لِلسُّؤُونَ السَّجْنِيَّةِ

BACK TO THE FOLD

One Prison May Hide Another...

**Testimony of a former inmate
Documented by
Hassan Sahily**

Log 3


مركز توثيق الأبحاث
Documentation & Research


Institut für
Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt